

كم من الأشياء الجميلة تمر بمحاذاتنا وتمضي كل يوم من دون أن نعيها الانتباه!

جلستنا في ذاك المكان الملهم المزدحم بالرسامين والشعراء والكتاب وقد انكب كلُّ منهم على عالمه الخاص بين يديه، سماعنا لتقاسيم العود وصوت فريد الأطرش الشجي، وتأملني في عيني صبرا العائدة متعةً أعجز عن وصفها .

عبرنا الشارع بعد طول جلوس نحو حديقة الورود حيث يغري كل شيءٍ بالحب، تجولنا بين أحواض الزهور اليانعة حتى تعبنا، فأسندت ظهري إلى جذع شجرةٍ عالية أستريح .

اقتربت ووضعت يديها على منكبِّي ونظرت في عينيّ طويلاً ثم قالت بنبرة خافتة، وهي تتكئ على كتفي : - عمار، أنت تجلب لي الأمل والخوف، لن أتمكن من العيش معك، وقد لا أتمكن من العيش من دونك، فأخبرني كيف أصنع؟، لم تكن حياتي قبلك سوى مواسم للحزن، فهل ستكون أنت موسم الفرح المقبل؟ .

قلت: - صبرا، لا تفسدي فرحتي بك، صدّقي أنني أحتاجك أكثر مما تحتاجيني، ولن ابتعد عنك .

قالت كأنما استعادت تعقلها الذي أعرف: - لا تعد بأكثر مما تستطيع فقد لا تساعدك الظروف، ولا تذهب بعيداً يا عزيزي فما زلت أتذكر ظروفك وقد لا تخرج عن قاعدة كل ما تمنيت من قبل . .

قاطعتها: - صبرا، الظروف أعدار الفاشلين، ولن يقف شيءٌ في طريقي إليك، نحن من يصنع الظروف ونحن من يتجاوزها حين يريد .

كم كان بودي لو طلبت يدها يومذاك وتركنا ما نخشاه وراء ظهورنا، لكن شجاعتي خاننتي فتمهلت وما كان تمهلي سوى إهداري لفرصتي في الحياة .

فرحت بحبها حتى طار قلبي في صدري كالعصفور وحتى غالبتني

الدموع، دنت في لحظة انتعاشي وهمست: - إن لم تكن قادراً على تبعات حبي فلا توقف قلبي النائم.

داخلتني رعشة خفيفة من أثر عبارتها الأخيرة فسكتُ.

واصلنا المشي حتى صادفنا في الممر الطويل بين الأشجار العالية رجلاً يقبل امرأة، كنا قريبين منهما لدرجة أن علت وجهها حمرة الخجل، تجاوزناهما من دون تعليق، فما كان من شأننا أن نخرج أخلاقنا.

سألتني عن رأيي بموضوع الدعوة فطلبت منها الحضور، وسألتني عن شيخة سؤالاً لمحت فيه الرضا.

قلت: - شيخة من الناس الذين لا يمكنك أن تعرفهم من اللقاء الأول لكنك تحبهم كلما عرفتهم أكثر.

زرت السيد عدوان منتصف الأسبوع وقضيت معه بعض ساعات المساء، وجدته فائضاً بتجارب الحياة وعبرها التي جاءت بعد فوات الأوان كأنما للحسرة!.

اكتشفت صورته التي كادت أن تخفيها التجاعيد، اعتزازه بنفسه وبمعاركه، ولمحت الجراح التي يوارئها وخوفه على مستقبل ابنته الوحيدة.

سكنتني صورته وطبع صوته الأَجَش في مسمعي، ونما بيننا ما يشبه الألفة حتى أنني رغبت في زيارته بعدها بيوم أو يومين.

الليلة موعد العشاء، سوف ينتظرنا الأصحاب في المقهى المجاور للفندق بينما أمر لأصطحبها من البيت، شعرت أن ذلك سيمنح علاقتنا بعض المشروعية، ثم إني أحببت لقاء والدها، ثمة رغبة تشدني للجلوس مع هذا المحارب القديم خصوصاً بعدما أخبرتني أنه يرحب دائماً بزيارتي، كان عليّ الإسراع في ترتيب ملابسني لأبدو مكتمل الأناقة، فثم نوع من التباهي في حفلنا!.

استقبلني السيد عدوان في منتصف الصالون، رحب بي وأمسك بيدي فرافقني حتى أخذت مقعدي ومازحني كأنما يعرفني منذ زمن، يبدو أننا من مزاج واحد.

أصبحت الآن أكثر ارتياحاً بعد ترحيبه وتصرفه العفوي، أعتقد أنه قصد ذلك بينما بدا في مزاج أفضل - ربما - من المرة السابقة، أحضرت فاطمة القهوة واستأذنت صبراً لتتركنا وحدنا. قال: - أخبرتني صبراً أنكما مدعوان للعشاء.

قلت: - نعم، أصدقاء وصديقات من الخليج ينتظروننا على العشاء، وتعمدت ذكر الصديقات.

قال بعد أحاديث المجاملة: - أعلم أن ابنتي ستكون آمنة مع شاب عربي شهم مثلك، صحيح أنها متعلمة وعاقلة لكنها تبقى فتاة. قلت: - أفهم ما تريد وأقدره، فلا تقلق يا سيدي.

قال: - أعرف أنك تدرك الأشياء بالإيماء وهذا يعجبني، لكن دعني أحدثك بصراحة، سمعت عنك منذ مدة وجيزة من أختي لبني ومن صبراً ثم ارتحت إليك حالما زرتني وتحدثت معي، خبرتني في الرجال تنبئني أنك لا تخذل الثقة، من حقك أن تعلم أن ابنتي كانت منطوية على نفسها لا تحب الاختلاط مع الناس، وقد فرحت وفرحت عمتها حين لاحظنا ارتياحها وإقبالها معك على الحياة.

قلت: - يشرفني يا سيدي ما ذكرت، وأمل أن أكون عند حسن ظنك، لكن أخبرني من فضلك ما سبب انطوائها؟.

قال: - هناك أسباب كثيرة لعلها حدثت عن بعضها، منها مقتل والدتها وهجرة أخيها والغربة هنا بعيداً عن وطنها، ولا أدري فربما تكون هناك أسباب نفسية، فقد قضت أربع سنين في الجامعة من دون أن يكون لها أصدقاء مقربون يحضرون معها أو يسألون عنها، سيد

عمار هذه أسرار عائلتي أطلعتك عليها لما أتوسم فيك من الخير ولما أراه من ثقة صبرا وارتياحها .

أشعرني حديثه المفاجئ بالمسؤولية وبأنني أصبحت مقرباً كثيراً من العائلة، وفي الحقيقة لم يكن شيء من العبث يدور في ذهني إنما المحبة، لا شيء سوى المحبة، على الأقل فيما أدركه من مشاعري .
تشعرك كلماته بالمسؤولية وتلمح في نظراته انكساراً يحاول أن يخفيه .

قال إنه يتمنى أن تندمج في محيطها وأن تحب الحياة، وسكت برهة ثم أنشد: -

وإني لأرجو الله حتى كأنما أرى بجميل الظن ما الله صانع
أخذني جمال البيت فلم أنتبه إلا على قوله: - تحفظ شيئاً في
الرجاء؟ .

قلت مجارياً، بعد لحظات تذكر: -

أتاك على قنوط منك غوثٌ يمنُّ به اللطيفُ المستجيبُ
وكلُّ الحادثاتِ وإنْ تناهت فمقرونٌ بها الفرجُ القريبُ
قال: - أحسنت . وجعل يهز رأسه، ثم أضاف: لا شيء أبلغ من
الشعر العربي، تحفظ شيئاً لأبي فراس؟ .

أنشدته: -

أراك عصيِّ الدمعِ شيمتكَ الصبرُ أما للهوى نهى عليك ولا أمرُ
بلى أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ ولكنَّ مثلي لا يذاع له سرُّ
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأسبلتُ دمعاً من شمائله الكبرُ
تكاد تضيء النارُ بين جوانحي إذا هي أذكتها الصباةُ والفكرُ
جعل الشيخ عند ذلك يتمايل طرباً حتى بلغت قوله:

وإني لجرارٌ لكل كتيبةٍ معودةٌ ألا يخل بها النصرُ
وإني لنزالٌ بكل مخوفةٍ كثيرٌ إلى نزالها النظرُ الشزُّ